

قراءات تمكين الأجيال الفلسطينية التعليم والتعلم تحت ظروف القاهرة

تفيدة جرباوي و خليل نخلة

رام الله: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية (مواطن)، 2008. 302 صفحة.

يوجي عنوان هذا الكتاب بالاطمئنان، كأن ما يحدث من تعليم وتعلم في فلسطين، "تحت ظروف القاهرة"، من شأنه أن يؤدي إلى "تمكين الأجيال الفلسطينية"، أو أنه، في مقلب لغوي آخر، يمكن أن يؤدي، أو يجب أن يؤدي، إلى "تمكين الأجيال الفلسطينية". لكن القارئ، وهنا أتحدث عن نفسي حصراً، ينتهي من قراءة الكتاب من دون أن يعرف كيف أن التعليم والتعلم القائمين حالياً، تحت أوضاع القاهرة، يؤديان، بالفعل، إلى "تمكين الأجيال الفلسطينية"، ولا ما هي الوسائل أو الطرق التي يلجأ إليها لتؤمن له النجاح في ذلك. كما أنه لا يحظى بأفكار أو اقتراحات محددة تتناول المستقبل، فتشرح لماذا، وكيف يمكن أن يجري التعليم والتعلم في المستقبل، كي يتم هذا "التمكين"، أو يتأمن بصورة أفضل مما يحدث في الوقت الراهن.

هذه المقدمة ضرورية، لأنها تحمل دعوة غير مباشرة، إلى تجنب الاقتباس والانجرار السهل وراء تعابير يطرحها كتاب الغرب، أو طرحها مؤسساتهم، فنتلقفها نحن بلا مبرر، ونستعملها من دون أن نحاول تقصي معانيها، أو ننظر في مدى مطابقتها لأوضاعنا. ويرتبط هذا بكلمة "تمكين" الواردة في عنوان الكتاب، والتي هي كلمة سيئة، لكن شائعة، كمرادف لكلمة Empowerment باللغة الإنكليزية، فلا نحن نعرف كيف نمكن أنفسنا، وما الشيء الذي نمكنها منه، ولا نعرف نصيب التعليم والتعلم من هذا التمكين، وخصوصاً نصيب التعليم، ولا كيف نفعل ذلك. أمّا أن ما يجري من تعليم وتعلم في فلسطين إنما يحدث "تحت ظروف القاهرة"، كما ورد في العنوان الفرعي للكتاب، فهو أمر لا شك في صحته مطلقاً، ولا يثير في ذهن القارئ أي تساؤل أو ريب. ولو اقتصر عنوان الكتاب على مثل هذا – أي لو كان عنوانه "التعليم والتعلم في فلسطين تحت ظروف القاهرة" أو "تعليم الفلسطينيين تحت ظروف القاهرة" – لكان العنوان مطابقاً للمضمون ومعبراً عنه بصورة أفضل كثيراً من العنوان المعتمد، والذي لا يترك في مجرى الكتاب أثراً.

والكتاب، في واقع الحال، وصف أو تقديم للمعلومات عن التعليم في فلسطين في ثلاثة فصول، يبدأ كل منها بكلمة "تحديات". وهذه الفصول تستعرض التعليم بالتدرج التاريخي: الفصل الأول، تحديات تعليم الفلسطينيين خلال الفترة 1948 – 1967؛ الفصل الثاني، تحديات تعليم الفلسطينيين ما بين سنتي 1967 و 1994؛ الفصل الثالث يغطي الفترة التي تلي سنة 1994 حتى سنة 2006. وهذه التقسيمات جيدة، ولها ما يبررها، باعتبار أن سنتي 1967 و 1994 هما سنتان مفصليتان في تاريخ فلسطين الحديث، الأولى لأنها تاريخ الحرب التي أدت إلى احتلال ما تبقى من أرض فلسطين، والثانية لأنها تاريخ اتفاق أوسلو الذي شكل بدء مرحلة ما يسمى الحكم الذاتي الفلسطيني. أمّا كلمة "تحديات" في عنوان كل من الفصول، فهي نافلة عن المضمون الذي لا يبحث في التحديات، وإنما يقدم معلومات عن واقع الحال في كل من هذه المراحل الثلاث.

والكتاب يبدأ بـ "مقدمة" قبل الفصول الثلاثة، ثم يضيف إلى الفصول الثلاثة فصلاً رابعاً بعنوان مفتوح على زاوية عريضة جداً: "الآفاق المستقبلية للعملية التعليمية التعلمية الفلسطينية".

وهذا الفصل الرابع، كما المقدمة، يفرق في مناقشات عامة لا أثر فيها لكلمة "تمكين"، ولا لكلمة "تحديات"، وبدلاً من هاتين الكلمتين نجد كلمات أخرى، بعضها قديم ومألوف ككلمة "التنمية" في مجال الاهتمام بـ "العلاقة المتينة بين التعليم والتنمية البشرية"، وبعضها جديد كـ "إنتاج المعرفة"، أو "تطوير الفكر التحليلي الناقد" (ص 13 – 14 من المقدمة). بما يوجي بأن المؤلفين يعتبران "التحديات" التي يواجهها الفلسطينيون اليوم تتمثل بربط التعليم بـ "التنمية البشرية" أو بـ "إنتاج المعرفة"، بدلاً من أن ترتبط بتحديات البقاء التي تستدعي "المقاومة" لا "التنمية"، وبتحديات "الإضعاف" التي تستدعي التقوية، أو بـ "التمكين"، وهي الكلمة الموجودة في عنوان الكتاب، والمفقودة في متنه.

ويبدو هذا الفصل الأخير، كما المقدمة، كغلاف فكري مصنوع على عجل لتجميل المعلومات المندرجة في متن الكتاب في فصوله التاريخية الثلاثة، لإكساب الكتاب طابعاً نظرياً، أو رفعه إلى مستوى علمي "أسمى" من مجرد الوصف، أو السرد، أو تقديم المعلومات. وليس لهذا الغلاف من مبرر أو حاجة، فالمعلومات هي ما نحتاج إليه عن التعليم في فلسطين، وعن كل شيء في فلسطين، أو في أي بلد عربي آخر.

وتدخل في صناعة هذا الغلاف ثلاثة أهداف، يقول المؤلفان إنهما سيقومان "بإخضاع تجربة التعليم الفلسطينية للتحليل من أجل فحص مدى استجابتها" لها، والأهداف هي:

1- ترسيخ وتعميق الهوية الوطنية والانتماء القومي.

2- تطوير الفكر التحليلي والناقد.

3- إنتاج المعرفة. (ص 14)

وفي سياق تحليل تجربة التعليم هذه، يشرع المؤلفان في عملية تشبيك معقدة لإظهار العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة وبين كل من المراحل التاريخية الثلاث.

يأخذ المؤلفان الهدف الأول مثلاً، وهو "التربية والهوية والانتماء"، وينتقلان به من المرحلة التاريخية الأولى (1948 - 1967)، إلى الثانية (1967 - 1994)، ثم إلى الثالثة (1994 - 2006)، فما الذي ينتج من هذا الجهد؟ في المرحلة الأولى يستخلص المؤلفان، بعد صفحتين أو أكثر قليلاً، أن التعليم "غير النظامي" تغلب "على أنظمة التعليم الرسمية للدول المسيطرة على التجمعات الفلسطينية الثلاثة... كان ذلك واضحاً في زخم ونوعية إنتاجه العلمي لاحقاً، الذي تمحور حول أدب المقاومة والصمود والحنين للوطن، والسياسة والتاريخ." (ص 256)

يقدم المؤلفان هذه الخلاصة إلى القارئ من دون أن يهتم بالعودة، ولو سريعاً، إلى ما تحدثنا عنه باستفاضة في الفصل الأول الذي غطى "تحديات تعليم الفلسطينيين" في هذه المرحلة عينها، ولا يعطيان مثلاً واحداً ورد في ذلك الفصل يشرح كيف "تغلب التعليم غير النظامي على أنظمة التعليم الرسمية." كما أن القارئ لا يعرف بأي طريقة تغلب "التعليم غير النظامي" على "التعليم النظامي"، ولا كيف تمكن المؤلفان من الفصل والتمييز بين النوعين من التعليم، وكيف عرفا أن الأول تغلب على الثاني، ولا كيف ظهرت تلك الغلبة "لاحقاً"، في "زخم ونوعية الإنتاج العلمي"، ولا ما سبب ظهورها "لاحقاً"، وهل أن مثل هذا الإنتاج لم يتوفر في الفترة المغطاة ذاتها، أي بين سنتي 1948 و1967.

ما جاء في سياق هذا الهدف الأول كان أقرب إلى المعقولة والفهم مما جاء في سياق الهدف الثاني، وهو "تطوير الفكر التحليلي الناقد".

في سياق هذا الهدف الثاني، نجد جدولاً طويلاً من عشر صفحات موزعاً في اتجاهين: الأول عمودي، يشمل لائحة بما يسمى "مؤشرات"، مقسمة إلى فئات كثيرة: (1) التعليم الرسمي، ويرد تحته: أ - الرؤية والسياسات التربوية، ب - التخطيط الاستراتيجي، ج - البنية التحتية، د - الهيكلية ونظام الإدارة؛ (2) المناهج: أ - مدى ارتباط المناهج بالفلسفة، ب - محتوى الكتب المدرسية، ج - أساليب التدريس، د - أساليب التقويم، هـ - أساليب إعداد المعلمين؛ (3) التعليم العالي؛ (4) التعليم غير الرسمي. هذه الفئات كلها "مؤشرات" مرصوفة عمودياً في الجدول، ويقابل كلاً منها، في اتجاه أفقي، الحقب التاريخية الثلاث.

لا يعرف القارئ سبب وقوع المؤلفين على "المؤشرات" المذكورة، ولماذا هي "مؤشرات" وليست مجالات، أو ميادين للنشاط، أو عمليات إجرائية في ميدان التعليم والتعلم. وعندما يشرع القارئ في قراءة ما يقابل هذه "المؤشرات" أفقياً، في الحقب التاريخية الثلاث، فإنه، مرة أخرى، لا يجد علاقة أو تشابهاً بين هذا التوصيف وبين ما جاء في فصول الكتاب السابقة التي تغطي المراحل التاريخية نفسها، ثم، الأهم من هذا وذاك، فإنه لا يحظى بأي شرح أو تفسير لسبب اعتبار أي من التوصيفات المعطاة في أي من الحقب التاريخية الثلاث، دليلاً أو برهاناً على وجود أو غياب "الفكر التحليلي الناقد"، وهو الهدف الثاني وبيت القصيد في هذا الجهد المضني كله. فما علاقة "النقص الحاد في المباني المدرسية" مثلاً، أو "تدني كفايات المفتشين"، أو "نفسي البيروقراطية"، أو "انحراف المناهج عن الفلسفة والأهداف المنصوص عليها في ميثاق الوحدة العربية" (وهذه كلها توصيفات لمؤشر أو آخر في حقة أو أخرى من الحقب الثلاث) - ما علاقتها، ومثيلاتها كثير، بـ "تطوير الفكر التحليلي الناقد"؟

وينتهي هذا الفصل الأخير، بعد الجدول الطويل، بفقرة تحت عنوان مثير: "استقراء الآفاق المستقبلية للفعل التربوي الفلسطيني في فلسطين"، متوجاً أربع صفحات تزدهم بالأفكار الجميلة، لكن المترددة كثيراً تحت أقلام كتّاب كثير

آخرين، وهي أفكار كان يمكن أن تظهر في سياق موضوعات أو مناقشات من نوع آخر، لا علاقة لها بما جاء في متن هذا الفصل الأخير، أو في مجمل الكتاب على مدى صفحاته.

* * *

ما تقدم كله، يتناول النواحي السلبية في الكتاب، لكن بروح إيجابية، الغرض منها الحضّ على الدقة، وعلى الترابط والوضوح في المنهجية المتبعة. ولا يعني الحديث عن النواحي السلبية أن الكتاب غير مفيد. فقد وردت الإشارة من قبل إلى المعلومات الموجودة في الفصول الثلاثة الأولى، وهي معلومات مهمة ومفيدة جداً، وخصوصاً ما ورد منها في الفصلين الثاني والثالث، عن المرحلتين ما بعد سنة 1967، باعتبار أن الفصل الأول يغطي المرحلة الأولى (1948 – 1967)، وهي مرحلة مغطاة في كتابات أخرى كثيرة ورد ذكر بعضها في الكتاب. إن افتقار المكتبة العربية إلى معلومات جيدة وموثقة ومحللة بشكل جيد، يشكل نقصاً كبيراً في مجال "إنتاج المعرفة" في النطاقين الفلسطيني خاصة، والعربي عامة، والفصلان الثاني والثالث يساهمان مساهمة ذات قيمة يمكن البناء عليها في المستقبل.

منير بشور

أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx